فكاهات

رواية

بلايا الحروب[1]

كان في انكلترا في ما مضى من الزمان رجل من الاشراف قد قضى معظم حياتهِ في رغد العيش وسعة اليد ورزقهُ الله ولدين ذكراً وانثى فدعا الغلام اوبري وسمى اختهُ مادلين . ولما ثارت في انكلترا الحرب الاهلية المعروفة بحرب الوردتين سنة ١٣٤٢ قُضي على هذا الرجل بزوال السعادة فدهمت جيوش الاسكتلنديين قصرهُ وتركتهُ خراباً فتشتت شمل اهل بيتهِ وفرّ الغلام في ناحية والفتاة في ناحية اخرى فلم يقف لهما على اثر . ولما يئس منهما هرب بزوجتهِ فراراً من القتل ولم يبعد عن القصر الا قليلاً حتى تبعتهُ الجنود وطلبوا منهُ التسليم فأبى وتملقوهُ فلم يرضَ فقتلوهُ وقادوا زوجتهُ اسيرةً لكنها لم تلبث ان برّح بها الحزن على مصاب زوجها وفقد ولديها فماتت بعد زوجها بثلاثة ايام

اما اوبري فبقي سائراً من بلدةٍ الى اخرى حتى بلغ المعسكر الانكليزي فطلب التطوع في الخدمة وكان لم يزل يافعاً فأبوا قبولهُ غير انهُ لما قصّ عليهم ما اصاب اسرتهُ قبلهُ القائد العام واوصى رئيس فرقتهِ ان يعتني بهِ فانتظم

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

في الجيش وابلى في الاعدآء بلآءً حسناً . واما مادلين فلم تزل سائرةً واثر فيها الخوف والتعب فوصلت الى شارعٍ منقطع وسقطت على الارض . ومرّ من هناك خادمٌ لبعض بيوت السادات فحملها في عربتهِ الى بيتهِ ولما رجع الى بيت سيدهِ اصحبها معهُ فوجدت مادلين نفسها في قصرٍ اجمل من قصر ابيها بين أُسرةٍ ذات سؤددٍ وغنى عظيم وعلمت انها في بيت اللرد وارك إرل سالسبوري . وكانت زوجتهُ الكنتة جوان بلانتاجنت ابنة عم الملك ادورد ملك بريطانيا فلما علمت الكنتة بخبر مادلين اخذتها اليها واتخذتها عشيرةً لها فلم تسمح بفراقها ساعةً . وكانت الكنتة تسعى جهدها في تسلية مادلين فلم يمضِ عليها الوقت الطويل حتى أَنِست باهل الدار وخف حزنها على فقد اسرتها غير انها كانت كلما تذكرت والدتها تنزوي الى غرفتها وتمطر خديها الوردين بدمعٍ غزير

وكان اخو اللرد وارك واسمهُ السير وليم مونتاغ فتىً غض الشباب ومن الفرسان الاشدّآء فاحبتهُ مادلين لكنها اخفت ما بها مخافة ان تستآء الكنتة فضلاً عن انها كانت تشعر من نفسها بانها ليست من مقام السير وليم ولذلك حرصت على ايداع حبها طي ضميرها فلم تبدِ اقل ما يدل على ذلك غير انها كانت كلما وقع بصرها على السير وليم تشعر بخفقان قلبها واضطراب جوارحها وانعقاد لسانها . وكان السير وليم قد اصابهُ ضعف ما اصاب مادلين ولكنهُ شغلتهُ الحرب القائمة عن التصابي فأجّل الاهتمام بعواطف الحب الى ان ينقضي اجل الحرب . وكانت نيران الثورة تخمد مدةً ثم تهيج براكينها باشدّ مما كانت عليهِ فتنسف وتدمّر وتخرّب ولا

تخريب بركان يزوف ورأى اللرد وارِك ان الاصوب نقل زوجتهِ الى قلعتهِ الشهيرة حيث تكون بمعزلٍ عن مشاهدة اهوال الحرب فنقلها ومادلين ووكل بحراستهما اخاهُ وليم في شرذمةٍ من الجنود وعاد اللرد الى معسكر مليكهِ للمحافظة عليهِ والذود عن الوطن

وفازت الجنود الاسكتلندية في بعض المواقع وقصدت فرقةٌ منهم قلعة اللرد وارِك وصعدت الكنتة جوان الى اعالي القلعة فرأت الاعداء يقتربون بسرعةٍ فأمرت بعض اتباعها ان يدعو لها السير وليم ولما حضر اشارت بيدها الى الجيش الزاحف وقالت انني افضل ملاقاة هذه العساكر ومقاتلتها على البقاء هنا كالحمام في اقفاصها . فتبسم السير وليم وقال سكّني روعكِ ايتها العزيزة انهُ ليس عندنا الا اربعون فارساً فلا قِبَل لنا بمثل هذا الجيش الكثيف ولكن اذا وصلت الاعداء وعسكرت في السهل امامنا خرجنا اليهم ليلاً واذقناهم الموت الزؤام . ولما خيم الظلام نصبت الجنود الاسكتلندية سرادقاتها واوقدت نيران الحراسة على نيّة مفاجأة القلعة في الصباح . ولما انتصف الليل كانت الكنتة لا تزال تراقب حركات العساكر فرأت فرسانها ينسحبون من باب القلعة بسكونٍ وهم ممتطون خيولهم فجثت على الارض ورفعت بصرها الى السماء وطلبت من الله حفظهم وردّهم مكللين بالانتصار . وبينما كانت جيوش الاعداء لاهية بالطرب والسرور لم تشعر الا وقد دهمها رجال السير وليم بخيولهم وسلاحهم وتناولوهم بالسيوف والحراب فذُعر الاسكتلنديون وهبّ كلٌّ الى سيفهِ فأعملهُ في رأس رفيقهِ وهم تحت ذلك الليل الحالك وبعد معركة دموية استمرّت نحو ثلاث ساعات انهزمت

جيوشهم تاركةً كل ما كان معها من زادٍ وذخيرة وعاد السير وليم الى القلعة منتصراً. فقابلت الكنتة جوان رجالها البواسل بوجهٍ ضاحك ودعتهم الى تناول كاسٍ من الخمر من يدها فشرب الجميع نخب انكلترا وملكها والكنتة

اما السير وليم فكان ينتظر اول كل شيءٍ ان يحظى بمشاهدة حبيبتهِ مادلين ويسمع من فمها كلمة الترحيب واذا بها داخلة وعلى وجهها آثار الكآبة فاخذ يدها وقال ما بالكِ يا عزيزتي مادلين هل غمَّكِ رجوعي سالماً. قالت معاذ الله لكني أخشى سوء العاقبة فلا بد للاسكتلنديين من الرجوع بعددٍ اكثر وتدبيرٍ احكم للاخذ بالثأر . فتبسم وليم وقال انني اعترف لكِ الآن باني قد وقفت قلبي على سبيل هواكِ فاذا اجبتني الى محبتي رأيتِ من هذه اليد ترساً يحميكِ من اعظم المخاطر وكفاني ان اتحقق انكِ لي فلا ابالي ولو هاجمني الثقلان . فتساقطت الدموع من مقلتي مادلين وحنت رأسها على صدرهِ قائلةً أحبك وانت حياتي فالطف بحياتك اكراماً لي وعدني انك تكون أشدّ تحرزاً في المواقع المستقبلة فقد رأيت عنك في هذه الليلة احلاماً مزعجة . قال خففي عنكِ يا عزيزتي ولا تهتمي بهذه الخيالات الليلية فانما هي أضغاث أحلام وانا أعدكِ بأني لا أفعل الا ما ترومين واختم وعدي لكِ بهذه القبلة

ولما بلغ امير اسكتلندا انهزام رجالهِ امام قلعة وارك قامت قيامتهُ فجند جيشاً وألى على نفسهِ ان لا يعود عن القلعة الا بعد ان يجعلها جثوةً على قبر الذين فيها . وفي ظهر اليوم الثاني كانت جيوش الاسكتلنديين

محيطة بالقلعة احاطة السوار بالمعصم وللحال أمر الامير الاسكتلندي بعض رجاله بردم الخنادق والبعض الآخر بنقب الجدران فهبّوا الى العمل غير مبالين بالاسهم النازلة عليهم نزول المطر وكان اذا سقط الواحد اخذ الثاني مكانهُ الى ان ثغروا السور الخارجي ودخلتهُ بعض الجنود . فلما رأى السير وليم ذلك صاح « لحارسنا القديس جاورجيوس ولوطننا العزيز » ثم اخترط سيفهُ وهجم واقتدت بهِ فرسانهُ لسدّ الممرّ الذي فتحهُ الاسكتلنديون وكان عدد الاعداء يتزايد وفرسان القلعة يقل عددها وكانت الكنتة ومادلين في أعلى القلعة تراقبان حركات المقاتلين فابصرتا من فعال السير وليم ما تعجز عنهُ الابطال ولكن رأتا من كثرة عدد العدوّ ما ايقنتا معهُ بضياع الامل فاخذتا تجيلان الرأي فيما ينبغي صنعهُ . فقالت مادلين عندي امرٌ واحد اظن فيهِ الخلاص ولكن فيهِ خطراً شديداً قد لا يمكن اجتيازهُ . . وبينا هي تتكلم اذ وصل اليهما السير وليم وكان قد جاء ليتفقد حالتهما فسمع كلام مادلين فقال قولي يا عزيزتي ما الرأي الذي سنح لكِ . قالت ان الملك ادورد الآن في يُركشاير على مسافة قريبة من هنا فلو أمكن وجود من يخاطر بنفسهِ فيخترق صفوف الاعداء ويبلّغ الملك أمرنا لأتتنا النجدة في الحال فخلصنا وهلك الاسكتلنديون . قال وليم لاجرم ان هذا هو الرأي ولكن من اين نعلم ان ادورد في يُركشاير وآخر خبر بلغنا انهُ في داخلية البلاد . قالت قد علمت ذلك من احد الاسرى اذ كنت اعالجهُ امس . قالت الكنتة ولكن هل يوجد بين ابطالنا من يجترئ على اقتحام هذا الخطر . قال وليم انهم جميعاً قد اضناهم الجوع والتعب فلا اظن ان عندنا من يقدم

على هذا الامر الكبير غير واحد وسأرسلهُ عند منتصف الليل : ثم اسرع الى رجالهِ يصدر الاوامر ويشدد القتال وكان بين رجالهِ بطلٌ يدعى أُنسلم فسلَّم اليهِ القيـادة وجهَّزهُ بالاوامر اللازمة ولما انتصف الليل اسرج وليم جوادهُ وتدجج بسلاحهِ واطلق لجوادهِ العنان . ورأتهُ الكنتة فصاحت يالك من شجاع يا وليم فلا عدمتك بريطانيا اما مادلين فسترت بيديها عينيها الداميتين وقالت ويلاهُ انا السبب في هلاكهِ . وكانت الليلة حالكة والبرد قارساً والرعود تقصف والجيش الاسكتلندي نائمٌ وحرسهُ غافلون اذ لم يخطر لهم امكان حدوث مثل هذا الامر فخلص السير وليم وبلغ يركشاير وما وقع الخبر على سماع الملك ادورد واللرد وارك حتى نهضا برجالهما متوجهين لتخليص القلعة . وفي صباح اليوم الثاني نهض الاسكتلنديون لمعاودة القتال ولكن بلغ اميرهم ان الملك ادورد قادمٌ بجيشٍ كعدد الرمال فتراجع عن القلعة ولما كان الليل التالي سار تحت ظلمتهِ فاوغل برجاله في البيداء وكان فرارهُ قبل وصول الملك ادورد بساعاتٍ قلائل

ولما وصل الملك فُتحت ابواب القلعة للقآئهِ وقابلتهُ ابنة عمهِ جوان بالترحيب وصافح السير وليم مادلين وقد قرأ في عينيها آيات السرور والاعجاب بشجاعته وصرف الجميع ليلتهم بمسرةٍ وابتهاج . وفي الصباح التـالي امر الملك ادورد بعض الفرسان بالمبارزة فتلثمت الابطال واصطفت في ميدان القلعة ونزع الملك من اصبعهِ خاتمـاً ثميناً فدفعهُ الى الكنتة لتمنحهُ جائزةً للفائز ثم هجم الرجال بعضهم على بعض ودارت رحى تلك الحرب الجدية الهزلية فمنهم من جرح ومنهم من أُسر وانجلت المكافحة عن اثنين لم يكلاَّ

ولم تضعف عزائمهما وكانا بقوة واحدة فشخصت اليهما ابصار الجميع واذ ذاك سقط احدهما الى الارض فوثب الثاني اليهِ ووضع سيفهُ على عنقهِ لحظةً ثم رمى بالسيف الى الارض واخذ بيد غريمهِ فاقامهُ وقال انا اعلم ان الجواد كان سبب سقوطك والا لما تمكن احدٌ منا من صاحبهِ . ودعا الملك الفائز ليأخذ الخاتم من يد الكنتة فاقترب ولما اعطتهُ الخاتم قبل يدها ثم توجه توًّا الى حيث كانت مادلين فالبسها الخاتم وجثا امامها باحترام فعرفتهُ مادلين وصبغ وجنتيها الاحمرار . ثم امر الملك المتبارزَين ان يرفعا نقابيهما ففعل الفائز واذا بهِ السير وليم ناثنى عليه الملك ادورد وقبَّلهُ اخوهُ وارك ثم قال لهُ ادورد استعدّ يا وليم لمرافقتي الى فرنسا فانني بحاجةٍ الى ساعدك فيها . ثم نظر الى الكنتة وقال من هي هذه الفتاة اللطينة التي خصّها السير وليم بمحبتهِ . قالت انها يتيمة يا عزيزي ادورد اتخذها وليم معبودةً لهُ . واذ ذاك اقترب المبارز الثاني ورفع نقابهُ فصاح الملك ماذا ارى اهذا انت يا اوبري . ووقعت الكلمة في سماع مادلين فنظرت الى الفتى فاذا هو اخوها فصاحت اخي وألقت بنفسها عليهِ فضمها اوبري الى صدرهِ وتعانقا طويلاً . فتعجب ادورد من ذلك الاتفاق وقال احمد الله على انتهآء مبارزة هذين الاثنين بسلام فانهُ لم يكن يخطر ببالي قطّ ان يكون احدهما اخاها والآخر خطيبها . ثم التفت الى اوبري وقال متى اتيت يا اوبري . قال اني اتممت اوامر جلالتكم وبعد ان عدت بلغني حضوركم الى هنا فوصلت حين كانت الفرسان تستعد للابراز فدخلت معها وقد اتيت لاخبر جلالتكم ان الجنود على اتمّ الاستعداد للسفر الى فرنسا

وبعد ان قضوا بضعة ايام صفـآء سار ادورد بجيوشهِ مصحباً معهُ السير وليم واوبري فانضم الى بقية عساكرهِ وسافر الى فرنسا تاركاً مادلين المسكينة حزينةً لفراق حبيبها واخيها . ومضى عليها سبع سنوات كان ادورد يتنقل في اثنآئها الى حيث تدعوهُ الحرب فلم يتمكن المحب من زيارة حبيبتهِ ولا الاخ من مشاهدة اختهِ

وبعد ما انقضت الحرب وعاد ادورد الى لندن احيـا في نفس الليلة التي وصل فيها ليلة انس دعا اليهـا عظمآءهُ وفي مقدمتهم ابنة عمهِ الكنتة جوان . وحضر ايضاً اوبري ووليم رغبةً في مشاهدة مادلين ولكن سآء فألهما فان الكنتة كانت بعد ان سمعت الملك يطنب في صفات مادلين لعبت في رأسها نيران الغيرة فطردتها فانطلقت المسكينة الى بيت تاجرٍ كان خادماً عند والدها فاقامت عندهُ

وكان الملك ادورد يتخطر في غرفتهِ بين المدعوّين وقد طوّق بذراعهِ خصر الكنتة وبينا هما كذلك سقطت عصابة ساق الكنتة الى الارض وكانت محبوكةً بالجواهر والحجارة الكريمة فانحنى الملك امامها والتقطهـا . ورأى الحاضرون ذلك فضحك بعضهم فاخذ الملك العصابة ووضعهـا على فخذهِ اليسرى وقال « ليخزَ كل من ظنّ سوءًا » ثم نظر الى ابنة عمهِ وقال سوف يفتخر اعظم الرجال في العصور المقبـلة بشرف الحصول على هذا الوسام . وكان كذلك

اما وليم واوبري فلما لم يريا مادلين خرجا من قصر الملك وجعلا يبحثان عنها حتى بلغهما ما ذكرناهُ . وكان في ذلك الحين قد انتشر الوبآء الشهير في

انكلترا فسارا وهما يمرّان بالجثث الملقاة في الشوارع ويسمعان النداآت بالويل فكانا صامتين يفكّر كلٌّ منهما في مادلين ويود ان يطير للقياها وهما يحسبان حسابات شتى . ولم يزالا يبحثان حتى بلغا بيت التاجر الذي كانت عندهُ فسألا عنها وهل هي باقية في قيد الحياة فقال الرجل نعم انها قد نجت مع اهل بيتي من آفات الوبآء باذن الله واذا كنتما تودّان مشاهدتها فما عليكما الا ان تنتظراها ساعةً ريثما ترجع . فقال السير وليم والى اين ذهبت في مثل هذا الوقت . قال لا اعلم يا سيديَّ غير اني اقول انها مَلَكٌ في صورة انسان وقد كانت كل هذه المدة تذهب لمساعدة المصابين وتعزيتهم غير مباليةٍ بالاخطار . فجلس وليم واوبري وافكارهما تائهة في مهامه الخوف وهما يحسبان الدقائق اعواماً واذا بالباب قد فتح ودخلت مادلين وقد اكتسب وجهها جمالاً جديداً فاضآء بنورٍ سماويٍّ فهجم الاثنان عليها يقبلانها ويضمانها الى افئدتهما . ثم قال السير وليم هلمّ بنا نهرب عاجلاً الى فرنسا فان من يسكن هنا لا يأمن خطر هذا الوبآء . فقالت مادلين لم اعهدك جباناً يا وليم أتهرب . . واذا نجوت من الموت هنا أفلعل البلاد التي تهرب اليها لا موت فيها . فجعل وليم يتذلل لها ويبرهن لها انهُ يريد الهرب خوفاً عليها ليس الا . وبينما هم جالسون تنهدت مادلين فنظرا اليها واذا بحمرة خديها قد انقلبت الى اصفرار ثم اظلمت عيناها فالقت رأسها على صدر حبيبها ويدها على كتف اخيها ولاح على وجهها ظل الموت فان الوبآء كان قد اصابها . فذُعرا لهذا المنظر وصاحا باهل البيت ليدركوهم بالطبيب فما كادوا يلبونهما حتى شهقت وفاضت روحها بين صدري حبيبها واخيها